المستقبل - الاحد 16 تشرين الثاني 2008 - العدد 3138 - نوافذ - صفحة 14

كتاب عبد الرؤوف سنّو «حرب لبنان 1975 - 1990»
لئلا يُترك للذاكرة المتقلبة أن تشهد وحدها على ذلك التاريخ

الياس القطّار

أثارت حرب لبنان، وستثير دائماً، فضول الباحثين وعامة الناس، من حيث كونها كارثة حلّت بوطن جميل، وظاهرة تاريخية انبرت الأقلام في الداخل والخارج لربطها بمثيل لها في التاريخ، من دون أن تجد شبيهاً لها في تاريخ لبنان والمنطقة والعالم، لا في الزمن القديم، ولا في الحديث والمعاصر.

حظيت هذه الحرب بدراسات من صحافيين لبنانيين وأجانب، ومن مراكز أبحاث، ومن أساتذة جامعيين. ومن بين آخر المؤرخين الذين ترصدّوها، وبحثوا، بطريقة علمية منهجية موضوعية ناجحة، في أسبابها وظروفها وحيثياتها وتواترها ونتائجها، الدكتور عبد الرؤوف سنّو، أستاذ التاريخ المعاصر في الجامعة اللبنانية، الذي خصّ سابقاً، الشرق الأوسط، والبلقان، والسلطنة العثمانية في مراحل تاريخها الأخيرة، بدراسات قيّمة.

حرب لبنان لعبد الرؤوف سنوّ عمل موسوعي في مجلدين، من 1808 صفحة زاخرة بالمعلومات والتحاليل والاستنتاجات العلمية العقلانية المحايدة والاحصاءات واللوحات البيانية المعبّرة جيداً عن الحدث وملخّصة له.
المجلد الأول يعالج عوامل التفجّر الداخلية في خلفياته وأسبابه، وعوامل التفجّر الخارجية والسياسات الإقليمية والدولية، ويتقصّى محطات الحرب من اندلاعها إلى إلغاء اتفاق 17 أيار 1983، مطلقاً عليها تسمية محطات الانتحار اللبناني ـ اللبناني واللبناني ـ الفلسطيني واللبناني ـ السوري واللبناني ـ الإسرائيلي والإسرائيلي ـ السوري والفلسطيني ـ السوري، مروراً بما اصطلح على تسميته بحرب السنتين، والدخول السوري إلى لبنان، والإجتياحين الإسرائيليين، ووصول الرئيسين بشير ثم أمين الجميّل إلى سدّة الرئاسة، وانتهاء باتفاق 17 أيار. كما يعالج حروب السلطة والجيش اللبناني والقوى الخارجية من سوريّة وعربية أخرى وإسرائيلية وأميركية وفرنسية، وفي مقدّم هذه الصراعات حروب الميليشيات الدموية، وما رافقها من تصفيات وخطف ونهب بعد الاجتياح الإسرائيلي، في المناطق المسماة وقتذاك الوطنية الإسلامية، والمناطق الشرقية التي شهدت صراعاً بين منطق الدولة ـ الحزب مع الرئيس أمين الجميل، والميليشيا ـ الكانتون مع القوات اللبنانية، مع توقف عند وصول الجنرال عون إلى قصر بعبدا، وما نجم عن ذلك مما سمي حرب إلغاء وحرب تحرير. كما يتوقف عند حالة الفوضى العارمة في بيروت الغربية التي كان لسوريا يد في تنظيمها، لكي يسمح لها ذلك العودة إليها بعد انسحابها المذلّ إثر الإجتياح الإسرائيلي، ويسمح لها بالقضاء على أي وجود عرفاتي في لبنان. ويغوص في انهيار التعايش الطوائفي مع تصدّع الميثاق الوطني وسقوطه، وأزمة الثقافة والهوية والاندماج المجتمعي. ويشرح مسألة الحوار في ظلّ المدفع من 1975 إلى 1981، محللاً مواقف الأطراف المحلية ومبادراتها للحلّ من أحزاب وحركات سياسية وحكومة ومجلس نيابي ومرجعيات روحية. ويعرض ويحلل المبادرات السورية والسعودية ومؤتمرات الحوار في جنيف ولوزان والمبادرات الدولية للحلّ: الفاتيكانية والأميركية والفرنسية والسوفياتية. وأخيراً يعالج اتفاق الطائف الذي أرضى السنّة، أكثر مما أرضى المسيحيين

الذين شعروا بتقليص صلاحيات رئيس الجمهورية، والشيعة الذين لم يجدوا فيه ما يحقق آمالهم. ويعرّج على سقوط الجنرال عون في 1990، مروراً برئاسة رينيه معوض والياس الهراوي، وتحكّم سورية بالرئاسات الثلاث، وهيمنتها على الحياة السياسية اللبنانية. تلي ذلك جداول توضيحية احصائية وغيرها.

بالنسبة للجزء الأول من الكتاب، لن نناقش فيه سوى أسباب الحرب، لأنّ أهمّ ما في دراسة الحروب عادة، هو التوقف عند أسبابها. فبعدما تنطلق الحروب والثورات يسهل متابعة وقائعها، خاصة اليوم، ساعة بساعة. والحرب عندما تندلع تأخذ صفة الحرب التي لا ترتدي سوى طابع دموي يرتقي من خلاله الهامشيون والفاشلون إلى سطح الأحداث، ويقود الحدث عادة كلّ من هم دون المستوى على الدرجات العقلية. أمّا المميزون والنابهون فيصبح حالهم كحال الفيلسوف في البلدة التي كان نبعها موبوءاً بمرض الجنون، بحيث جنّ الناس فيها، فلم يجد الفيلسوف مندوحة سوى الشرب من هذا الماء والمشاركة بالجنون. أمّا السرّ في دراسة الحرب فيكمن في أسبابها وظروفها، وهذا قد يتطلب وقتاً طويلاً لكشف المستور منها.

بكل الأحوال، أخذ الدكتور سنوّ بكل ما قيل عن أسباب الحرب، وهو عادة ما صرّح به المتخاصمون، ومن يحركون بأصابعهم جماعاتهم في لبنان، ملقين السبب طبعاً على الطرف الآخر، ولكل طرف كان سببه يتغطّى وراءه، مبرراً إقدامه على خوض غمار الحرب بتحليل من منظاره للواقع الاجتماعي والاقتصادي والثقافي والديمغرافي والنظمي وحتى على مستوى نظام القيم.

حسناً فعل سنّو بالوقف عند كلّ الفئات المشاركة في الحرب واستنطاق أسبابها الداخلية من دون التغطية على العامل الفلسطيني، وتقصي الأسباب الإقليمية لها خاصة عبر العامل السوري المستفيد الأول من هذه الحرب، وطبعاً العامل الإسرائيلي، والأسباب العالمية عبر لعبة الأمم. ولكن في تصنيفه للمشاركين فيها يقحم أحيانا جمعيات لم يُشارك في الحرب منها إلاّ عدد لا يتجاوز أصابع اليد، ولجان تضمّ بعض الأساتذة في الجماعة المذكورة ومن خارجها.

وأعتقد أن المقاربة الموضوعية للدكتور سنو أخذت كافة الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والتربوية والثقافية والنظمية بعين الإعتبار، وقد أصاب في استنتاجه أنّ التجارب التاريخية للطوائف وطبيعة النظام ومسائل الهوية والمشاركة والفوارق الاجتماعية الاقتصادية والخصوصيات المتنوعة هي عوامل مسببة للتوتر لا السبب الرئيس لاندلاع القتال. ونحن نعتقد أنّ هذه الأسباب قد تؤدي إلى نزاع اجتماعي فيما لو كان لبنان كباقي الأوطان، الانقسام فيه اجتماعياً.
في نظرنا، أبعد من كلّ هذه الأسباب، على وجاهتها، أساس الحرب جوهر تكوين لبنان الذي كان قائماً على ازدواجية شرخ وجودي بين غالبية أتباع جماعتين مع ملحقاتهما المذهبية من ملل ونحل، واليوم شرخ ثلاثي بعدما انشقت إحدى المجموعات إلى جزئين يستحضران عداوة عمرها 1500 سنة . شرخ سببه كون الدين على سموّه يفرض على غالبية أبنائه ممارسات يومية متباينة وسلمّ قيم غير متجانس. والواعون والمتعاطون بعقلانية مع هذا الإنتماء في كلا الطرفين قلّة. هذا الشرخ لم تقو على حلّه أية منظومة علمانية أو اشتراكية أو قومية أو وطنية أو أممية، لأنّ القائلين بها كانوا يمارسون ازدواجية مستترة تشبه الانفصام في الشخصية. فالحرب الحالية، كما حروب القرن التاسع عشر، مردّها إلى اختلال في التوازن الديمغرافي معطوفاً على إختلال بالتوازن الاقتصادي وبالتالي الاجتماعي الثقافي. فكلما شعرت جماعة من الجماعات المكوّنة للبنان أنّها ديمغرافياً تقارب الجماعة الأخرى إندلعت ثورة أو فتنة، وكلمّا شعرت أنّها تجاوزت النصف، لربما، أعلنت حرباً يجابهها

الفريق الأخر بردّ فعل دموي. وطالما لم يتوصّل اللبنانيون إلى صيغة عقلانية تولّد نظماً متطورة، فيها أحوال شخصية متجانسة وقيم عقلانية تفصل بين الإيمان بالله، من دون إكراه، وبين الممارسة اليومية المتجانسة، وحتى تسمح لغير المؤمنين بممارسة قناعاتهم من دون إكراه، فلبنان يبقى على حافة بركان، كلّما اهتزّت المعادلات الديمغرافية مصحوبة بتبدّل المعادلات الاقتصادية وبالتالي الثقافية والاجتماعية.

في دراسته لدور الفعاليات الدينية أغفل عدم تحفّظ إحدى المرجعيات، أسوة ببكركي تجاه الحرب، وتأييده بشدّة الفلسطينين حدّ اعتبارهم جيش المسلمين وتحوّله رأس حربة في مسألة عزل الفريق الآخر، مما سمح بتقوية هذا الفريق في صفوف الجماعة التي ينتمي إليها بشكل كاسح.

لو كان الانقسام في لبنان اجتماعياً لما كان ثمّة حيّز للعامل الخارجي الإقليمي والعالمي فيه. ولكن هذا الشرخ الوجودي هو أفضل بؤرة تعشش فيها أدوات المتجانسين مع الخارج مع الداخل.

لبّ الصراع، كان مسألة المشاركة، ولكن قصر النظر لدى الطرفين، لا عند طرف واحد، جعل البركان يشتعل. فولاية رئيس مغلق الذهنية كانت قرب نهايتها، والمشاركة كانت ستتحقق، عاجلاً لا آجلاً، مع تنامي وجود نخب واعية عند الشباب المسيحي. وإذ يفاجئ الجميع أنّ البندقية الفلسطينية تصبح مطية المشاركة، وعقد بعض السياسيين، يقابلها تعنّت حفنة من القادة من ليس في منطقهم سوى التعنّت.

وبعكس دول أخرى في المنطقة، تتوافر فيها عناصر التوحيد في الايديولوجيا والمجتمع والدين، يجد د. سنوّ أن لبنان مجتمع منقسم على نفسه في ظلّ نظام يفرّق ولا يجمع، وايديولوجيا متنافرة، وما إلى غير ذلك مما جعل جغرافيته السياسية عالة عليه، ومدخلاً لتدخل الأعداء والأشقاء والأصدقاء منذ القرن التاسع عشر، وحتى اليوم. وكان القدر الأسود له بالمرصاد لحظة وصول التأزم الداخلي فيه إلى الذروة، مع نموّ المقاومة الفلسطينية على أرضه، واستتباب الحرب الباردة، وانفجار الصراع العربي ـ الإسرائيلي، وحلم الرئيس حافظ الأسد الإمساك بورقة الشرق الأوسط من موقع قوة يحسب لها حساب.
وبجرأته المعهودة يذكر سنوّ أنّ هذا ما حدا بالمنظمات الفلسطينية في نضالها ضدّ إسرائيل، وتنافرها مع بعض الأنظمة العربية، إلى تحويل لبنان إلى قاعدة عسكرية وسياسية مسلوبة الإرادة، مع فقدان الأمل باستغلال أراض عربية أخرى أرضية لهذا الصراع. وشاءت الظروف أنّ حلم ما اصطلح على تسميته بـ«اليساريين» و« الحركة الوطنية» بقلب النظام متكئين على الفلسطينيين فتح الباب على مصرعيه أمام الفلسطينيين في تعجيل انفجار لبنان، من دون أن يسأل هذا الفريق نفسه عن كيفية تحقيق حلمه في ظلّ الدويلة الفلسطينية. أمّا اسرائيل العاملة على اجتثاث حركة المقاومة الفلسطينية، فقد استعملت كلّ الوسائل المتاحة لها لحماية نفسها بما في ذلك تفتيت لبنان، ودفع بعض قادة الموارنة ليكونوا رأس حربة في هذا المضمار. وبالجرأة نفسها يستخلص أنّ سورية قد استخدمت ذرائع القومية، وسورية الكبرى، والمصالح التاريخية والجغرافية، وتهديد أمنها عبر لبنان، وخشيتها من قيام دويلات إحداها موالية لاسرائيل والأخرى موالية للفلسطينيين، وفي كلتي الحالتين فقدان لورقة رابحة سياسياً وتسمح بكافة الابتزازات الاقتصادية من جهة أخرى، للإمساك بالملفين اللبناني والفلسطيني وعدم السماح بنجاح أية مبادرة للحلّ، إلاّ بواسطتها، وبما يؤمن مصالحها السياسية والاقتصادية في لبنان. وموقع لبنان في قلب الصراع العربي ـ الاسرائيلي جعله ساحة لتنافس الجبارين.

هذا الرصد الموفق للأبعاد الإقليمية والدولية يضفي طابع النظرة الشمولية والأفق البعيد المدى في تحليل عبد الرؤوف سنوّ.

من السياسة ينتقل سنوّ في الجزء الثاني إلى الاقتصاد والمجتمع والثقافة، فيدرس اللامركزية الاقتصادية التي نجمت عن الحرب وأدّت إلى انشطار الاقتصاد المركزي ونموّ الأسواق في الضواحي والمحافظات، وتأسيس الفروع المصرفية. كما يدرس كيفية تكيّف المصارف والصيرفة والسياحة مع الأوضاع الأمنية، وقيام الجدار الإسرائيلي الاقتصادي على الحدود الجنوبية من لبنان وازدهار المرافئ غير الشرعية التي ألحقت خسائر جمّة بخزينة الدولة، والانشطار المناطقي بخلق خطوط تماس ومعابر إذلال. وانشطار الإدارة والإعلام الرسمي اللبناني وتعطلهما مفسحين المجال أمام تنامي الادارات ووسائل الاعلام المليشيوي والطائفي والمناطقي وفساد الادارة الرسمية.
ويتقصّى الكاتب الاقتصاد في دوامة الحرب متوقفاً أمام جردة الخسائر البشرية الكارثية، بالقياس إلى حجم لبنان، والخسائر الاقتصادية وتدهور الوضع المالي وانهياره، وانهيار مالية الدولة، وتراجع وضع الزراعة والصناعة والتجارة. ويحلل مسألة التضخم وتكيّف اللبنانيين مع الخدمات العامة والخاصة. ويخلص إلى أنّ الحرب أدت إلى تباطؤ النشاط الاقتصادي وتراجع الناتج المحلي ونموّ معدلات التضخم وتراجع سعر صرف العملة الوطنية وقوتها الشرائية، واستيلاء المليشيات على موارد الدولة وفقدان الحسّ الوطني اقتصادياً مع زيادة الاحتكار والمضاربة بالعملة. ويدخل إلى صميم الحياة الاجتماعية عبر دراسة أثر الحرب في الأسرة وعلى الأولاد، كما أثرت على علاقات الزواج وسنّ الزواج والطلاق، وأثر الحرب على الثقافة والإعلام غير الشرعي. وأثرها في نوعية ما يكتب بحيث عمل الكثيرون على احياء عقد الماضي ويخصص فصلاً لانهيار التعليم ومستواه على كلّ الصعد، وكيفية اندفاع بعض الجمعيات ومنها مؤسسة الحريري للتعويض والحرب على الجهل. ويدرس مسألة الهجرة والتهجير وتفاقمها ومسؤولية التهجير في الهجرة.
الفصلان الأخيران مكرسان لمسألة المليشيات من فلسطينية ولبنانية وعلاقتها بالمجتمع وقرصنتها للاقتصاد والإدارة ولأنشطتها الاجتماعية وإدراتها المدنية. وبمواجهة هذه المليشيات يدرس كيفية قيام مؤسسات ذات منفعة عامة كالصليب الأحمر ومجلس كنائس الشرق الأوسط وجمعية كاريتاس والدفاع المدني الرسمي والخاص المقاصدي والحركة الانمائية والجبهة الموحدة لرأس بيروت ومؤسسة عامل ومنظمات الأمم المتحدة ببلسمة جراح اللبنانيين.

أعتقد انه يوجد ثمّة إجماع بين الباحثين على النتائج الاقتصادية والبشرية والاجتماعية والثقافية والتربوية بعكس العوامل السياسية.
يقدّم سنوّ «بانورما» تحليلية موثّقة وواضحة لحرب لبنان، متقصيّاً حقائقها ووقائعها من خلال وثائق غير منشورة وأخرى منشورة ودراسات بلغات عدّة.

يصعب تقييم كتاب بهذا الحجم، ويشكل مادة «عويصة»، كموضوع حرب لبنان في صفحات قليلة. إظهار حسناته الجمّة، وحتى مناقشة، لا إنتقاد الكتاب، تقتضي فصولاً طوالاً. ومع هذا سنشير إلى بعض ملامح أهمية الكتاب:

ـ الكتاب ليس مجرد دراسة استعراضية متسرعة أو إطلالة وصفية أو تحليلية لموضوع من مواضيع الحرب اللبنانية، بل دراسة أكاديمية تراعي شروط الكتابة المنهجية، علمية، موثقة خير توثيق. فقد استطاع سنوّ الاحاطة شبه الكاملة بما تيسّر من مراجع الدراسة من لغات مختلفة.

ـ الموقف المحايد والموضوعي، والإحاطة المركّزة الجيدة بمواقف الأطراف كافة، بكلّ جزئياتها، والجرأة في دقّ باب ما كان محظوراً قوله عن دور بعض الأطراف الضالعة والمُوجّهة للحرب.
ـ الانتماء الواعي والعقلاني إلى وطن يريد له كلّ الخير. من دون حبّ قاتل، أو تنكّر له غير عاقل، قاد إلى ما قاد إليه من شلالات دم.
ـ الدراسة غنيّة بكل أنواع الاحصاءات واللوحات البيانية والاستنتاجات.
هذا الكتاب، سفر من أسفار الحرب اللبنانية، وقراءة على ضوء المعطيات الراهنة عنها. وعندما تنكشف غالبية أوراق هذه الحرب، ووثقائها السريّة، تتوضح الصورة، ويكون ما بذله عبد الرؤوف سنوّ من جهد واعٍ، عنصراً رئيساً في رسم صورتها السوداء.

عبد الرؤوف سنّو «حرب لبنان (1975-1990)»، «تفكك الدولة وتصدّع المجتمع»، مجلدان: المجلد الأول، مفارقات السياسة والنزاعات المسلّحة والتسوية. المجلد الثاني، التحوّلات في البنى الاقتصادية والاجتماعية والمعرفية/ الدار العربية للعلوم ناشرون/ بيروت 2008